الباب الأول

الفصل الأول : الهجرة أحداث وعِبَر

الفصل الثاني : تعريف بالإسلام

الفصل الثالث : الإسلام والعقل

الفصل الرابع : الإسلام دين كامل وواضح

الفصل الخامس : رحمة الإسلام في العبادات

الفصل السادس : الإسلام دين الأدب

الفصل الأول :

الهجرة أحداث وعبر

إلْفُ المكان وحب مجاورة الأهل والأقارب والجيران شيء فطري مركوز في طباع الإنسان ، فالإنسان ابن بيئته ومكانه لا يخرجه عنه إلا ضرورة ، ومن أصعب الأمور على نفسه مذاقاً تهجيره من وطنه وإخراجه من داره وماله وأهله ، ولذا جاء أمر الإنسان بقتل نفسه شريك أمره بإخراجه من بلده كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ [النساء٦٦] .

وأصعب أنواع الهجرة على الإطلاق هي هجرة المجبرين على الهجرة من أوطانهم تحت ضغط الظلم والقهر الذي يلاحق الإنسان للتخلي عن دينه وعقيدته ، فإما أن يعيش عقائد وشعائر لا يؤمن بها تصطدم مع عقله وقلبه ويبقى مهيض الجناح يعاني ظلماً يكابده وهماً يصاحبه ليل صباح حيث لا كرامة له ولا أمن ولا أمان حينئذ يبحث عن مخرج ليعيش حراً يمارس عقيدته وينعم بحريته لا يصاحبه خوف ولا يلاحقه حيف ، هكذا عانى المؤمنون منذ فجر التاريخ وما زال يعاني الكثيرون ، وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون .

فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام بعدما أدحض بالحق زيف الباطل وأظهره الله عليهم كان جوابهم له ما ذكره القرآن ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء ٦٨] فليقولوا ما شاءوا فماذا يبلغ قولهم ؟ إذ إن الله قد قال ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء ٦٩-٧١] إنه نفس المنطق ونفس الفكر الذي حكاه القرآن عن قوم لوط عندما دعاهم إلى الله وإلى الطهر والفضيلة فردوا عليه ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ

قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف٨٢] وكذلك منطق قوم شعيب ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ [الأعراف٨٨].

إن الخروج من أمام وجه الظلم قد يكون هو السبيل الوحيدة التي لا يجد المصلحون أمامهم غيرها فإما الفكاك وإما الهلاك ، وهذا ما نجده أيضاً في قصة موسى عليه السلام الذي فر خوفاً من القتل ، حيث قال له الناصح من آل فرعون : ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [القصص ٢٠، ٢١].

إنه منطق الإقصاء والإبعاد الذي رأيناه في قصة يوسف عندما قالوا ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ [يوسف ٩] وهذا ما رأيناه أيضاً من الكفار على عهد النبي فما أن صدع بالحق امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر٩٤] وشرح الله صدور البعض للإيمان فأسلموا ، وما أن علم المشركون بإسلامهم حتى انطلقوا على المستضعفين منهم الذين ليس لهم عشيرة تمنعهم فصبوا عليهم العذاب صباً فكان البلاء على هؤلاء المستضعفين يتوالى ويستمر بغير ذرة من رحمة أو رقة في شعور ، لقد بلغ العذاب من الشدة والقسوة إلى الحد الذي عذر الله فيه من تكلم بكلام الكفر فأعطى المشركين ما يريدون من سباب في الإسلام ونبيه .

وفي هذا جاء قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ [النحل١٠٦] ذكر ابن إسحق عن سعيد بن جبير قال : قلت لعبد الله بن عباس أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يُعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعم والله إن كان ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به حتى يعطيهم ما يسألونه من الفتنة.

من هؤلاء المعذَّبين عمار بن ياسر وأبوه وأمه وأخته وبلال بن رباح وخباب بن الأرتّ ، كانوا يُلبسونهم دروع الحديد وقت الظهيرة تحت نار شمس مكة المحرقة ويهيلون عليهم الرمال ويرجمونهم بالحجارة ويقلبونهم ظهراً على بطن تحت العذاب ، وكان النبي يمر بآل ياسر وهم يُعذبون ويقول لهم : صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة، وماتت سمية أم عمار فكانت أول شهيد في الإسلام ثم مات ياسر وابنه بعده أيضاً ، نال التعذيب والاضطهاد كل المؤمنين من رجال ونساء وأطفال من الأحرار والعبيد.

كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل الإسلام جارية تدعى زنيرة وكانت تُكْوى بمكاوي الحديد بين أعطاف جلدها ويدعون الأطفال للعبث بعينيها حتى ذهب بصرها ، وعندئذ قال المشركون لها : ما أذهب بصرك إلا اللات والعزى . فقالت لهم : والله ما هو كذلك وما تدري اللات والعزى من يعبدهما ولكن هذا أمر من السماء والله قادر على أن يرد بصري ، فردَّ الله بصرها فقالوا : هذا سحر محمد ثم أعتقها أبو بكر رضي الله عنه.

أم شريك بنت جابر بن حكيم

وقع في قلب أم شريك الإسلام وهي بمكة فأسلمت ثم جعلت تدخل على نساء قريش سراً تدعوهن حتى ظهر أمرها فحملوها على بعير وتركوها ثلاثة أيام في السفر تقول : فحملوني على بعير ليس تحتي شيء ..ثم تركوني ثلاثاً لا يطعموني ولايسقوني فنزلوا منزلاً وكانوا إذا نزلوا وقفوني في الشمس واستظلوا ، وحبسوا عني الطعام والشراب حتى يرتحلوا ، فبينما أنا كذلك إذا بأثر شيء بارد وقع عليَّ منه ثم عاد فتناولته فإذا هو دلو فشربت منه قليلاً ثم رفع ثم عاد فصنع ذلك مراراً حتى رويت ثم أفضت سائره على جسدي وثيابي فلما استيقظوا إذا هم بأثر الماء ورأوني حسنة الهيئة فقالوا لي : انحللت فأخذت سقاءنا فشربت منه فقلت : لا والله ما فعلت ذلك ، كان من الأمر كذا فقالوا :لئن كنتِ صادقة فدينك خير من ديننا . فنظروا إلى الأسقية فوجدوها كما تركوها فأسلموا لساعتهم .

وممن عُذِّب في مكة بسبب إسلامه خباب بن الأرت التميمي سُبِي في الجاهلية وبيع في مكة وكان مولى لأم أنمار الخزاعية وكان يعمل حداداً في صناعة السيوف وقد لقي من صنوف العذاب في المال والنفس الشيء العظيم ، وقصته مع العاصي ابن وائل مشهورة يحكيها بنفسه فيقول : كنت قيناً بمكة فعملت للعاصي بن وائل السهمي سيفاً فجئت أتقاضاه فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد . فقلت : لاأكفر بمحمدﷺ حتى يُميتك الله ثم يحييك قال : إذا أماتني الله ثم بعثني ولي مال وولد فسأقضيك فأنزل الله ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ ﴾ [مريم ٧٧ ، ٧٨] [متفق عليه] .

وقد كان يُكْوى بالحديد حتى ينبعث الدخان من لحمه وودكه ، وقد ذهب إلى رسول الله يشكو إليه ما يلقى هو وإخوانه المستضعفون من بلاء وإيذاء ، ولندعه يحكي لنا لقاءه مع النبيﷺ قال : أتيت النبي وهو متوسد ببرده وهو في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : يا رسول الله ألا تدعو الله فقعد وهو محمر وجهه فقال : « لقد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويُوضع المنشار على مفرق رأسه فيُشقّ باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه وليُتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئبَ على غنمه » رواه البخاري

وممن أوذي بسبب إيمانه وعُذِّب عثمان بن عفان رضي الله عنه ، روي أنه لما أسلم أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه وربطه وأقسم أن لا يُحلَّ إلا إذا ترك الإسلام فأقسم عثمان على عدم تركه الإسلام فلما رأى عمه صلابته في دينه تركه .

وممن أوذي عبد الله بن مسعود ومن المواقف المشهورة والتي أوذي فيها أشد الإيذاء أنه عزم على الجهر بالقرآن بين المشركين علانية فحذره المسلمون من مغبة ذلك إلا أنه أصر وجاء إلى الكعبة وكفار قريش جلوس ، فقرأ بأعلى صوته بعضاً من آيات القرآن الكريم وعندما فعل ذلك قام إليه كفار قريش فضربوه فقال له

الصحابة : هذا الذي خشينا عليك قال : ما كان أعداء الله أهون منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً قالوا : لا حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون .

وممن أوذي في الله أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فقد قام خطيباً في المسجد الحرام ذات يوم فقام إليه كفار قريش فضربوه ضرباً شديداً ، وممن ضربه في ذلك اليوم عتبة بن ربيعة حيث جعل يضربه على وجهه بنعلين مخصوفتين حتى ما يُعرف وجهه من أنفه وجاء بنو تيم يتعادون فأجلَتْ المشركين عن أبي بكر وحملوه في ثوب إلى منزله ولايشكُّون في موته وأقسموا لئن مات أبو بكر ليُقتلن عتبة بن ربيعة » .

وممن عُذِّبَ أيضاً ولم يلق نصيراً ولا معيناً بلال بن رباح وكان مولى لبني جمح وكان عبداً حبشياً وكان مولاه أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له : لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول وهو في ذلك البلاء : أحد أحد . بل بلغ من حنقهم عليه أن ربطوا في عنقه حبلاً وأمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين جبال مكة وهو في ذلك لا يزيد على قوله : أحد أحد . ولما رأى أبو بكر ما يلقى بلال من كفار قريش جاء إلى مولاه أمية بن خلف فاشتراه منه بخمس أواق فلما اشتراه وانطلق به قال له بلال : إن كنت إنما اشتريتني لنفسك فأمسكني وإن كنت إنما اشتريتني لله فدعني أعمل لله . أخرجه البخاري في صحيحه.

وكان من الموالي المعذبين غير هؤلاء كثير وكان أبو بكر رضي الله عنه يعتقهم لله حتى قال له أبوه أبو قحافة : يا بني إني لأراك تعتق رقاباً ضعافاً فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون دونك فقال أبو بكر : يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله عز وجل ، فأنزلت الآية ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ ﴾ [الليل ٥-٧] إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١ ﴾ [الليل ١٩ - ٢١] .

وما ذكرناه نماذج فقط من إيذاء الكفار للمسلمين ، وإلا فإن كل المسلمين قد أصابهم من إيذاء الكفار إما بالكلام وإما بالفعال ، حتى إن الصحابة كانوا يستخفون بصلاتهم عن المشركين.

قال ابن إسحاق : وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شِعْب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحي بعير فشجه فكان أول دم هريق في الإسلام . وهذا الخبر يدل على مقدار ما واجهه الصحابة رضي الله عنهم في مبدأ الإسلام من محاصرة المشركين ومتابعتهم إياهم حتى اضطروهم إلى الاستخفاء بصلاتهم في الشعاب النائية ، ومع ذلك وصل إليهم المشركون وعابوهم وقاتلوهم .

المقاطعة

مقاطعة المشركين لبني عبد المطلب والمسلمين :

لما بلغ الأذى من المشركين للمسلمين أشده واجتمعت قريش على قتل النبيﷺ علانية جمع أبو طالب بني أبيه وأمرهم أن يُدخلوا رسول اللهﷺ شِعْبهم ويمنعوه ممن أراد قتله فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم فمنهم من فعل ذلك حمية ومنهم من فعله إيماناً فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوه أجمعوا أمرهم على أن لايجالسوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق لا يقبلوا من بني هاشم أبداً صلحاً . فمكث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين واشتد عليهم البلاء وقطعوا عنهم الأسواق وكان أبو طالب إذا نام الناس أمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد مكراً به واغتياله فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته فاضطجع على فراش النبيﷺ ويأتي رسول الله ﷺ فراش ذلك الرجل فينام عليه . وقد أقام بنو هاشم وبنو المطلب

في ذلك الشِّعب ثلاث سنين لا يصل إليهم شيء إلا سراً وكان حكيم بن حزام يرسل إليهم بالبعير المحمل بالأطعمة من قمح وغيره إلا أن ذلك لم يكن ليكفيهم فأقاموا على ذلك في جهد جهيد حتى شاء الله جل وعلا أن تُنقض هذه الصحيفة وكان خير من قام في ذلك هشام بن عمرو وكان ذا شرف في قومه وكان يأتي بالبعير وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلاً وقد أوقره طعاماً حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه فيدخل الشعب عليهم ثم يفعل مثل ذلك ويجعل عليه ثياباً لهم وهكذا .

فمشى هشام إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب فقال : يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يُبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم أما إني لأحلف بالله أن لو كان أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك إليه أبـداً . فقال : ويحك يا هشام فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها قال قد وجدت رجلاً قال : فمن هو ؟ قال : أنا قال له زهير : أبغنا ثالثاً. فذهب إلى المطعم بن عدي فقال له : يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ؟ قال : ويحك فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد قال : قد وجدت لك ثانياً قال : من هو ؟ قال : أنا قال : أبغنا ثالثاً قال : قد فعلت قال : من هو ؟ قال : زهير بن أمية قال : أبغنا رابعاً .

فذهب هشام إلى أبي البختري بن هشام فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية والمطعم بن عدي وأنا معك قال : أبغنا خامساً . فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم فقال له : وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد ؟ قال : نعم ثم سمى له القوم فاتعدوا جبل الحجون ليلاً فاجتمعوا هنالك فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها .

وقال زهير : أنا أبدأ فأكون أول من يتكلم ، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير بن أمية عليه حلة فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم والله لاأقعد حتى تُشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ، فقال أبو جهل وكان في ناحية المسجد : كذبت والله لا فقال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حيث كُتبت قال أبو البختري : صدق زمعة لا نرضى ما كُتِبَ فيها ولا نُقر به قال المطعم بن عدي : صدقتما وكذب مَنْ قال غير ذلك نبرأ إلى الله منها ومما كُتِب فيها وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك . فقال أبو جهل : هذا أمر قد قُضِي بليل تشور فيه في غير هذا المكان . فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم . وبهذا انتهت ثلاث سنوات من الحصار الذي عانى منه بنو هاشم وبنو عبد المطلب ومن معهم من المسلمين :

استمر مسلسل التعذيب والقتل والحصار حتى أذن الله تعالى لهؤلاء أن يخرجوا بدينهم ولسان حالهم يقول : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

[آل عمران ١٩٣ - ١٩٥]

في ظل تلك الظروف التي يعاني منها المسلمون ، نزلت سورة الكهف ، تلك السورة التي أخبرت بقصة الفتية الذين فروا بدينهم من ظلم مَلكِهِم ، وأووا إلى كهف يحتمون به مما يراد بهم ، كان في هذه القصة تسلية للمؤمنين ، وإرشاداً لهم إلى الطريق الذي ينبغي عليهم أن يسلكوه للخروج مما هم فيه . لقد عرضت قصة أصحاب الكهف نموذجاً للإيمان في النفوس المخلصة ، كيف تطمئن به ، وتؤثره

على زينة الحياة الدنيا ومتاعها ، وكيف أن الله تعالى يرعى هذه النفوس المؤمنة ويقيها الفتنة ، ويشملها برحمته ورعايته ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [الكهف ١٦] .

لقد أبانت هذه القصة للمؤمنين طريق الحق والباطل ، وبيَّنت أنه لا سبيل للالتقاء بين باطل مستعل ظالم لا يسمح برؤية الحق ولا معايشته وبين حق له رجال يفدونه بأرواحهم ودمائهم وأموالهم وعشيرتهم ودنياهم ، فلم يكن بُدٌّ من المفاصلة والفرار بالدين والعقيدة ، وانطلاقاً من هذه الرؤية القرآنية أمر النبيﷺ المسلمين المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة ، وقد وصفت أم المؤمنين أم سلمة زوج النبي ﷺ هذا الحدث فقالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفُتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء ، والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لايستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمه ، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم عنده أحد، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه ، فخرجنا إليها أرسالاً - أي جماعات - حتى اجتمعنا بها ، فنزلنا بخير دار إلى خير جار ، أمِنَّا على ديننا ولم نخش منه ظلماً » رواه البيهقي بسند حسن .

وهكذا هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة في السنة الخامسة للبعثة ، وكان هذا الفوج مكوناً من اثنى عشر رجلاً وأربع نسوة ، كان في مقدمتهم عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ومعه زوجته رقية بنت رسول اللهﷺ ، وكان رحيلهم تسللاً تحت جنح الظلام حتى لا تشعر بهم قريش ، فخرجوا إلى البحر عن طريق جدة ، فوجدوا سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة ، ولما علمت قريش بخبرهم خرجت في إثرهم، وما وصلت إلى الشاطئ إلا وكانوا قد غادروه في طريقهم إلى الحبشة ، حيث وجدوا الأمن والأمان ، ولقوا الحفاوة والإكرام من ملكها النجاشي الذي كان لا يُظلم عنده أحد ، كما أخبر بذلك النبي ﷺ .

قال الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل٤١] لقد كان الإذن بالهجرة إذناً بالنصر وإذناً بالتمكين . قال الله تعالى في شأنهم ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر٨] .

تكالبت الأحزان على النبيﷺ وزادت عليه همومه وتضاعفت بوفاة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ، وعمه أبي طالب في عام واحد ، فخديجة كانت خير ناصر ومعين له بعد الله تعالى ، وعمه كان يحوطه ويحميه ويحبه أشد الحب ، وضاعف من حزن النبي ﷺ أنه مات كافراً.

وتستغل قريش غياب أبي طالب فتزيد من إيذائها للنبي ﷺ وتضيّق عليه ، وكان أبو لهب من أكثر الناس كراهية للدعوة وصاحبها ﷺ ، حتى إنه كان يلاحق النبيﷺ في موسم الحج ، وفي الأسواق يرميه بالحجارة ويقول : « إنه صابئ كـــذاب » ، ويحذر الناس من اتباعه ، فضاقت مكة على رسول الله ﷺ واشتد به الحال ، حتى فكر في أن يتخذ أسلوباً آخر في دعوته بتغيير المكان ، علّه أن يجد قبـــولاً ، فاختار الخروج للطائف، التي كانت تمثل مركزاً مهماً لسادات قريش وأهلها ، ومكاناً استراتيجياً لهم، حيث كانوا يملكون فيها الأراضي والدور ، وكانت راحة لهم في الصيف .

فعزم على الخروج إليها راجياً ومؤملاً أن تكون أحسن حالاً من مكة ، وأن يجد من أهلها نصرة ، فخرج على أقدامه حتى لا تظن قريش أنه ينوي الخروج من مكة ، وكان في صحبته زيد وهو ابن الرسولﷺ بالتبني ، وكان بمثابة الحامي والحارس لرسول الله ﷺ وبعد أن أمَّن رسول الله ﷺ جميع السبل ، وأخذ الحيطة والحذر ، أقبل على الطائف وكله أمل أن تكون أرض خير وأن تلقى دعوته قبولاً ، بدأ ﷺ بسادات القوم الذين ينتهي إليهم الأمر ، فكلمهم عن الإسلام ودعاهم إلى الله ، فردوا عليه رداً قاسياً ، وقالوا له : اخرج من بلادنا ، ولم يكتفوا بهذا الأمر ، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم فتبعوه يسبونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة .

فأصيب عليه الصلاة السلام في قدميه حتى سالت منها الدماء ، وأصاب النبيﷺ من الهم والحزن والتعب ما جعله يسقط على وجهه الشريف ، ولم يفق إلا وجبريل قائم عنده، يخبره بأن الله بعث ملك الجبال برسالة يقول فيها : إن شئت يا محمد أن أطبق عليهم الأخشبين ، فأتى الجواب منه عليه السلام بالعفو عنهم قائلاً : « أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » رواه البخاري .

واستمر أهل الطائف في إيذائه ﷺ حتى اضطروه إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة من سادات أهل الطائف ، فجلس في ظل شجرة يلتمس الراحة والأمن ، ثم دعا الله سبحانه وتعالى قائلاً : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ؟ أو إلى عدو ملَّكته أمري ، إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل عليَّ غضبك ، أو أن ينزل بي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »

بعدها تحركت العاطفة في أهل ذلك البستان ، فصرفوا عن رسول الله الأوباش والسفهاء ، ثم جاءوا بغلام لهم نصراني يُدعى عداساً ليعمل على خدمة النبيﷺ ، فحمل معه قطفاً من العنب ، فلما وضعه بين يدي رسول اللهﷺ مد يده إليه وقال : (بسم الله) ثم أكل ، فقال عداس : إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ، فقال له النبيﷺ « من أي البلاد أنت؟ قال : أنا نصراني من نينوى ، فقال رسول الله ﷺ : « أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ » قال عداس : وما يدريك ما يونس؟ قالﷺ : « ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي » ، فأكب عداس على يدي رسولﷺ وقدميه يقبلهما، فقال ابنا ربيعة ، أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك فلما جاء عداس قالا له : ويحك ما هذا؟ قال لهما : ما في الأرض خير من هذا الرجل ثم رجع النبي ﷺ إلى مكة ليستأنف خطته الأولى في عرض الإسلام وإبلاغ الرسالة للوفود والقبائل والأفراد، وزادت قريش من أذاها لرسول اللهﷺ ، وخلعت جلباب الحياء

والمروءة ، فراح بعض رجالاتها يلاحقونه ﷺ في الأسواق والمواسم يرمونه بالكذب، ويحذرون العرب من اتباعه.

لم تصبر قريش طويلًا حين رأته ﷺ ماضيًا في عمله ودعوته إلى الله ، بل أكثرت ذكره وتذامرت فيه ، حتى قررت مراجعة أبي طالب بأسلوب أغلظ وأقسى من السابق ، فعظم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد ، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا بن أخي ، إن قومك قد جاءونى فقالوا لي كذا وكذا ، فأبق عليَّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق ، فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله ، وأنه ضعُف عن نصرته ، فقال « عم ، والله لو وضعوا الشمس في يمينى والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » ، ثم استعبر وبكى ، وقام ، فلما ولى ناداه أبو طالب ، فلما أقبل قال له : اذهب يا بن أخي ، فقل ما أحببت ، فو الله لا أُسْلِمُك لشيء أبدًا وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجَمْعِهِم ... حتى أُوَسَّدَ في التراب دفينًا

فاصدع بأمرك ما عليك غَضَاضَة ... وأبْشِرْ وقَر بذاك منك عيونا

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماضٍ في عمله عرفت أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ ، وأنه مجمع لفراقهم وعداوتهم في ذلك ، فذهبوا إليه بعمارة ابن الوليد بن المغيرة وقالوا له : يا أبا طالب ، إن هذا الفتى أنْهَدُ فتى في قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولدًا فهو لك ، وأسْلِمْ إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك ، وفرَّق جماعة قومك ، وسفَّه أحلامهم ، فنقتله ، فإنما هو رجل برجل ، فقال : والله لبئس ما تسومونني ، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبدًا. فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا ، فقال : والله ما أنصفتموني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ ، فاصنع ما بدا لك . ولما فشلت

قريش في هذه المفاوضات ، ولم توفق في إقناع أبي طالب بمنع رسول الله ﷺ وكفه عن الدعوة إلى الله ، قررت أن تختار سبيلاً قد حاولت تجنبه والابتعاد منه مخافة مغبته وما يؤول إليه ، وهو سبيل الاعتداء على ذات الرسول ﷺ .

انطلقت الألسن المجرمة بالسخرية والشتم ، وامتدت الأيدي الآثمة بالأذى، ولقي النبي ﷺ من سفهاء قريش ما لقي .وكان عمه أبولهب في مقدمة هؤلاء الأشقياء الذين مارسوا هذا العمل الآثم فقد كان أحد رؤوس بني هاشم ، ولم يكن يخشى ما يخشاه الآخرون ، وقد ظهرت عداوته للإسلام وأهله منذ اليوم الأول ، فبلغ من أمره أنه كان يتبع رسول الله ﷺ في الأسواق والمجامع ، ومواسم الحج يكذبه ويرميه بالحجارة حتى يدمى عقبيه ، وكان أبو لهب قد زوَّج ولديه عتبة وعتيبة ببنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما ، ولما مات عبد الله الابن الثاني لرسول الله ﷺ استبشر أبو لهب وذهب إلى المشركين يبشرهم بأن محمدًا صار أبتر .

وكانت امرأته أم جميل امرأة سليطة بذيئة اللسان ، تبسط في رسول الله ﷺ لسانها ، وتؤجج نار الفتنة ، وتثير عليه حربًا شعواء للإفساد بينه وبين الناس ، وتضع الشوك في طريقه والقذر على بابه .

ومن صور الأذى التي تعرَّض لها النبي ﷺ ما ثبت عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة ، وجمع من قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم : ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان ، فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها ، فيجيء به ، ثم يمهله ، حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم – وهو عقبة بن أبي معيط – فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه ، وثبت النبي ﷺ ساجدًا ، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة – وهي جويرية – ، فأقبلت تسعى ، والنبي ﷺ ساجدٌ ، حتى ألقته عنه ، وأقبلت عليهم تسبهم ، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته ، قال : « اللهم عليك بقريش ، اللهم عليك بقريش ،

اللهم عليك بقريش ، ثم سمى : اللهم عليك بعمرو بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، وعمارة ابن الوليد » ، يقول ابن مسعود : « فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر ، ثم سُحبوا إلى القليب ، قليب بدر » رواه البخاري .

ومن ذلك أن أشراف قريش اجتمعوا يوماً في الحجر ، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ، فيقول : (نعم، أنا الذي أقول ذلك) ، ثم أخذ رجل منهم بمجمع ردائه ، فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه وهو يبكي ويقول : « أتقتلون رجلاً أن يقول : ربي الله » ، وفي رواية البخاري عن عروة بن الزبير قال : سألت عبد الله بن عمرو : أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبيﷺ قال : بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقًا شديدًا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبي ﷺ وقال : أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله ؟

ولو ذهبنا نتتبع المواقف التي أساءت فيها قريش للنبيﷺ بالقول والفعل لطال الأمر ، حتى بلغ بهم الحال أن حاولوا قتله كما فعلوا في أواخر المرحلة المكية ، وقد ازداد إيذاؤهم له وتجرؤهم عليه بعد وفاة عمه أبي طالب ، الذي كان يحوطه ويحميه ، فلما مات أقدمت قريش على ما لم تكن تقدم عليه من قبل ، وكانﷺ يذكر ما لاقاه من أذى قريش قبل أن ينال الأذى أحدًا من أتباعه فيقول : (لقد أخفت في الله عز وجل وما يخاف أحد ، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد) رواه الترمذي وغيره .

لقد تحملت العصبة المؤمنة من صنوف العذاب وألوان البلاء ما تنوء بحمله الجبال، وتتفطر لسماعه القلوب ، وتقشعر منه الجلود فكان الإذن من الله تعالى لهم بالهجرة وكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة.

أمر النبي ﷺ المسلمين المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة ، وقد وصفت أم المؤمنين أم سلمة زوج النبي ﷺ هذا الحدث فقالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ ، وفُتنوا ، ورأوا ما يصيبهم من البلاء ، والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمه ، لايصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم عنده أحد ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه، فخرجنا إليها أرسالاً - أي جماعات - حتى اجتمعنا بها ، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمِنَّا على ديننا ولم نخش منه ظلماً » . رواه البيهقي بسند حسن.

وهكذا هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة في السنة الخامسة للبعثة ، وكان هذا الفوج مكوناً من اثنى عشر رجلاً وأربع نسوة ، كان في مقدمتهم عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ، وكان رحيلهم تسللاً تحت جنح الظلام حتى لا تشعر بهم قريش ، فخرجوا إلى البحر عن طريق جدة ، فوجدوا سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة ، ولما علمت قريش بخبرهم خرجت في إثرهم وما وصلت إلى الشاطئ إلا وكانوا قد غادروه في طريقهم إلى الحبشة ، حيث وجدوا الأمن والأمان ، ولقوا الحفاوة والإكرام من ملكها النجاشي الذي كان لا يُظلم عنده أحد ، كما أخبر بذلك النبي ﷺ .

وفي رمضان من نفس السنة خرج النبي ﷺ إلى الحرم ، وفيه جمع كبير من قريش ، فيهم ساداتهم وكبراؤهم ، فقام فيهم ، وفاجأهم بتلاوة سورة النجم ، ولم يكن أولئك الكفار سمعوا كلام الله من قبل؛ لأنهم كانوا مستمرين على ما تواصى به بعضهم بعضًا ، من قولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت :٢٦] فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة ، وقرع آذانهم كلام إلهي خلاب ، وكان أروع كلام سمعوه قط ، أخذ مشاعرهم ، ونسوا ما كانوا فيه فما من أحد إلا وهو مُصْغٍ إليه ، لايخطر بباله شيء سواه ، حتى إذا تلا في خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها

القلوب ، ثم قرأ ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ [النجم :٦٢] ثم سجد ، لم يتمالك أحد نفسه حتى خر ساجدًا.

وفي الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين ، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين. وسَقَطَ في أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لَوَّى زمامهم ، فارتكبوا عين ما كانوا يبذلون قصارى جهدهم في محوه وإفنائه ، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب ممن لم يحضر هذا المشهد من المشركين ، وعند ذلك كذبوا على رسول الله ﷺ وافتروا عليه أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير، وأنه قال عنها ما كانوا يرددونه هم دائماً من قولهم : (تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهم لترتجى) ، جاءوا بهذا الإفك المبين ليعتذروا عن سجودهم مع النبيﷺ ، وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يألفون الكذب ، ويطيلون الدس والافتراء.

وبلغ هذا الخبر إلى مهاجري الحبشة ، ولكن في صورة تختلف تمامًا عن صورته الحقيقية، بلغهم أن قريشًا أسلمت ، فرجعوا إلى مكة في شوال من نفس السنة ، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار وعرفوا جلية الأمر رجع منهم من رجع إلى الحبشة ، ولم يدخل في مكة من سائرهم أحد إلا مستخفيًا ، أو في جوار رجل من قريش. ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش ، وسطت بهم عشائرهم ، فقد كان صَعُبَ على قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن الجوار ، ولم ير رسول الله ﷺ بُداً من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى .

الهجرة الثانية إلى الحبشة

استعد المسلمون للهجرة مرة أخرى ، وعلى نطاق أوسع ، ولكن كانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها ، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها ، بيد أن المسلمين كانوا أسرع ، ويسر الله لهم السفر ، فانحازوا إلى نجاشي الحبشة قبل أن يُدْرَكوا. وفي هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان فيهم عمار ، فإنه يشك فيه ، وثماني عشرة أو تسع عشرة امرأة.

مكيدة قريش بمهاجري الحبشة :

عز على المشركين أن يجد المهاجرون مأمناً لأنفسهم ودينهم ، فاختاروا رجلين جلدين لبيبين ، وهما : عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة قبل أن يسلما وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشي ولبطارقته ، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة ، وزوداهم بالحجج التي يُطرد بها أولئك المسلمون ، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يشيروا على النجاشي بإقصائهم ، حضرا إلى النجاشي ، وقدَّما له الهدايا ثم كلماه فقالا له : أيها الملك ، إنه قد ضَوَى إلى بلدك غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينًا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه. وقالت البطارقة : صدقا أيها الملك، فأسلمهم إليهما ، فليرداهم إلى قومهم وبلادهم.

ولكن رأى النجاشي أنه لا بد من تمحيص القضية ، وسماع أطرافها جميعًا. فأرسل إلى المسلمين ، ودعاهم ، فحضروا، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائنًا ما كان . فقال لهم النجاشي : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟ قال جعفر بن أبي طالب وكان هو المتكلم عن المسلمين : أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل منا القوى الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئًا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا

قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر : نعم. فقال له النجاشي : فاقرأه عليَّ ، فقرأ عليه صدرًا من : ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أَخْضَلُوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال لهم النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ، ولا يُكادون - يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه - فخرجا ، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لعبد الله بن أبي ربيعة : والله لآتينه غدًا عنهم بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن أبي ربيعة : لاتفعل ، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا ، ولكن أصر عمرو على رأيه. فلما كان الغد قال للنجاشي : أيها الملك ، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا ، فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح ففزعوا ، ولكن أجمعوا على الصدق ، كائنًا ما كان ، فلما دخلوا عليه وسألهم ، قال له جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البَتُول.

فأخذ النجاشي عودًا من الأرض ثم قال : والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود ، فتناخرت بطارقته ، فقال : وإن نَخَرْتُم والله . ثم قال للمسلمين : اذهبوا فأنتم شُيُومٌ بأرضي والشيوم : الآمنون بلسان الحبشة من سَبَّكم غَرِم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، ما أحب أن لى دَبْرًا من ذهب وإني آذيت رجلاً منكم والدبر : الجبل بلسان الحبشة. ثم قال لحاشيته : ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي ، فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه. قالت أم سلمة التي تروى هذه القصة : فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

الهجرة إلى المدينة المنورة :

أصبح كفار مكة في غيظ شديد ، بعدما صار لرسول الله ﷺ أنصار في يثرب ، وهم أهل حرب يجيدون القتال ولن يتخلوا أبداً عن الإسلام مهما كلفهم السبيل في نصرته .

شعر كفار مكة أن الأمر سيخرج من أيديهم ، فانقضوا على المسلمين بالتعذيب والأذى ، والتف المسلمون حول نبيهم الكريم ﷺ يطلبون منه الإذن في ترك مكة كلها ، ويهاجرون بدينهم ، حتى يستطيعوا أن يعبدوا الله تعالى وهم آمنون ، فأذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة . فبدأ المسلمون يتسللون سرًّا إلى المدينة ، تاركين ديارهم وأموالهم من أجل دينهم ، وجاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الرسولﷺ يستأذنه في الهجرة ، فطلب منه الرسولﷺ أن ينتظر لعل الله يجعل له صاحبًا ، ففهم أبو بكر أنه سيظفر بالهجرة مع رسول اللهﷺ ، فانتظر مسرورًا ، وأخذ يُعِدُّ للرحلة المباركة ، فجهَّز ناقتين ليركبهما هو ورسول الله ﷺ إلى المدينة.

المؤامرة :

اجتمع زعماء مكة في دار الندوة ذلك البيت الكبير الواسع الذي كان لقصي بن كلاب وعلى وجوههم الغضب؛ للتشاور في أمر الرسول ﷺ ، فقد شعروا أنه يُعد نفسه للهجرة إلى المدينة ، وإذا تم له ذلك فسوف تصبح المدينة مركزًا كبيرًا يتجمع فيه المسلمون من كل مكان حول النبي ﷺ وبذلك يشكلون خطرًا على تجارة أهل مكة عندما تمر بالمدينة في طريقها إلى الشام ذهابًا وإيابًا ، وبدأ النقاش ، فقال بعضهم : نُخرج محمدًا من بلادنا فنستريح منه ، وقال آخرون : نحبسه حتى يموت ، وقال أبوجهل : نأخذ من كل قبيلة شابًا قويًا ، ونعطي كلاً منهم سيفًا صارمًا قاطعًا ، لينقضوا على محمد ، ويضربوه ضربة قاتلة ، وهكذا لا يستطيع عبد مناف -قوم محمد- محاربة القبائل كلها ، فيقتنعون بأخذ ما يريدون من مال تعويضًا عن قتل محمد ، وكان الشيطان اللعين يجلس بينهم في صورة شيخ نجدي وهم لايعرفونه ، فلما سمع ذلك الرأي قال في حماس : القول ما قال الرجل ، وهذا الرأي لا رأى غيره ، فاتفقوا جميعًا عليه.

وسجَّل القرآن الكريم ما دار في اجتماع المشركين ذلك ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال٣٠] وتظهر عناية الله؛ فجاء جبريل إلى الرسول ﷺ يأمره ألا يبيت هذه الليلة في فراشه وأن يستعد للهجرة ، قالت عائشة -رضي الله عنها- : فبينما نحن يومًا جلوس في بيت أبي بكر في حَرِّ الظهيرة ، قال قائل لأبي بكر : هذا رسول الله ﷺ ، ولم يكن يأتينا في مثل هذه الساعة ، فقال أبوبكر -رضي الله عنه- : فداءً له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر فجاء رسول الله ﷺ ، فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال النبي ﷺ لأبي بكر : « أخرج مَنْ عندك » فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله ، قال : « فإني قد أُذِنَ لي في الخروج » فقال أبو بكر : الصحبة بأبي أنت يا رسول الله ، قال رسول الله : ﷺ « نعم » .

أحداث الهجرة :

كان الله - سبحانه- قادرًا على أن يرسل ملكًا من السماء يحمل رسوله إلى المدينة كما أسرى به ليلاً من مكة إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى السماء ، ولكن جعل الهجرة فرصة كبيرة لنتعلم من رسول الله ﷺ دروسًا عظيمة في كيفية التفكير والتخطيط والأخذ بالأسباب التي توصل إلى النجاح.

ولنبدأ بأول هذه الدروس ، فكيف يخرج النبي ﷺ هو وصاحبه أبو بكر -رضي الله عنه- من بين هؤلاء الكفار دون أن يلحقوا بهما؟ فلو خرجا من مكة سالمين فإن المسافة طويلة بين مكة والمدينة وسوف يخرج وراءهما الكفار ويدركونهما ، لابد إذن من الاختباء في مكان ما؛ حتى ييأس الكفار من البحث عنهما ، ومن هنا وضع رسول الله ﷺ خطة محكمة لتتم الهجرة بسلام فأمام بيت رسول الله ﷺ وقف مجموعة من شباب قريش في الليل ، ينتظرون حتى يخرج الرسول ﷺ فيقتلوه جميعاً ضربة رجل واحد وكان هؤلاء الكفار يتطلعون بين الحين والحين إلى فراش رسول الله ﷺ ليطمئنوا على وجوده ، فأمر النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب -رضي الله عنه-

بالنوم في فراشه ، وأن يتغطى ببردته ، وطمأنه بأن المشركين لن يصلوا إليه بأذى إن شاء الله .

واستجاب عليٌّ رضي الله عنه بكل شجاعة وحماس ، ونفذ ما أمره الرسول ﷺ به ، وأراد الرسول من ذلك تضليل المشركين ، فإذا نظروا إليه من الباب ووجدوه في فراشه ، ظنوا أنه ﷺ ما زال نائمًا ، وقد كانت عند الرسول ﷺ أمانات كثيرة تركها المشركون عنده ، فأراد الرسولﷺ أن يردها إلى أصحابها ، فأمر عليًّا أن ينتظر في مكة لأداء هذه المهمة ، رغم أنهم أخرجوا المسلمين من ديارهم ، وآذوهم ، ونهبوا أموالهم ولكنها عظمة التشريع الإسلامي في عدالته وأخلاقه ومبادئه التي لا تتلون ولا تتغير حسب الظروف والأحوال فالأمانة حق صاحبها وجب ردها عليه ولوكان محارباً ومجرماً وما ينبغي لمسلم أبداً أن يخون خائناً أو يظلم ظالماً فإنه إذاً مثله ، ما جاء الإسلام لنصرة أشخاص وإنما لنصرة مبادئ حملها هؤلاء الأشخاص الذين اختارهم الله لها فحملوها وأدوها على خير وجه وأحسن أداء .

ونام علي -رضي الله عنه- في فراش الرسول ﷺ ، وتوجه النبيﷺ إلى الباب ، وخرج وفي قبضته حفنة من التراب فنثرها على رءوس المشركين ، وهو يقرأ سورة يس إلى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس٩] وإذا برجل يمر عليهم فرأى التراب على رءوسهم ، فقال لهم : خيبكم الله ، قد خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه ترابًا ، أفما ترون ما بكم؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه التراب فنظروا من الباب ، فوجدوا رجلاً نائمًا في مكان الرسولﷺ وعليه غطاؤه ، فقالوا : هذا محمد في فراشه، وعليه برده ، ثم اقتحموا دار النبي ﷺ ، فوجدوا عليًّا في فراشه ، فخرجوا يبحثون عن الرسولﷺ في كل مكان ، وكان الرسولﷺ خلال هذه الفترة قد وصل إلى بيت صاحبه أبي بكر -رضي الله عنه- وعزما على الذهاب إلى غار ثور ليختبئا فيه ، وحمل أبو بكر الصديق رضي الله عنه كل ماله ، وخرج مع رسول اللهﷺ من باب صغير في نهاية المنزل حتى لا يراهما أحد ، وانطلقا حتى وصلا الغار .

وهناك استوقف أبو بكر رسول الله ﷺ ودخل أبوبكر أولاً ؛ ليطمئن على خلوّ الغار من الحيَّات والعقارب ، ثم سدَّ ما فيه من فتحات حتى لا يخرج منها شيء ، وبعد ذلك دخل الرسولﷺ ، وها هي ذي أسماء بنت أبي بكر يدخل عليها جدها أبو قحافة بعد أن علم بخروج ولده أبي بكر مع رسول الله ﷺ ، وكان رجلاً كبيرًا قد عَمِيَ ، يسألها عما تركه أبو بكر في بيته ويقول : والله إني لأراه فجعكم بماله مع نفسه ، قالت : كلا يا أبتِ! إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا ، وأخذت أحجارًا فوضعتها في المكان الذي كان أبوها يضع ماله فيه ، ثم وضعت عليها ثوبًا ، ثم أخذت بيده وقالت : يا أبت ، ضع يدك على هذا ، فوضع يده عليه فقال : لا بأس ، فإن كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم.

أما كفار مكة فإنهم حيارى ، يبحثون عن الرسولﷺ وصاحبه ويضربون كفًّا بكف من الحيرة والعجب ، فالصحراء على اتساعها مكشوفة أمامهم ، ولكن لا أثر فيها لأحد ولا خيال لإنسان ، فتتبعوا آثار الأقدام ، فقادتهم إلى غار ثور ، فوقفوا أمام الغار ، وليس بينهم وبين الرسولﷺ وصاحبه سوى أمتار قليلة ، حتى إن أبا بكر رأى أرجلهم فقال لرسول اللهﷺ : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فقال له الرسولﷺ : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما » متفق عليه.

وصدق رسول الله ﷺ ، فقد انصرف القوم ، ولم يفكر أحدهم أن ينظر في الغار ، وسجل القرآن هذا ، فقال تعالى : ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة ٤٠] .

ومكث الرسولﷺ وصاحبه في الغار ثلاثة أيام وكان عبدالله بن أبي بكر يذهب إليهما بأخبار الكفار ليلاً ، وأخته أسماء تحمل لهما الطعام ، أما عامر بن فهيرة راعي غنم أبي بكر فقد كان يسير بالأغنام فوق آثار أقدام عبدالله وأسماء حتى لا يترك أثرًا يوصل إلى الغار ، وبعد انتهاء الأيام الثلاثة ، خف طلب المشركين للرسول ﷺ

وصاحبه ، فخرجا من الغار ، والتقيا بعبد الله بن أريقط ، وقد اتفقا معه على أن يكون دليلهما في هذه الرحلة مقابل أجر.

تحرك الركب بسلام ، وأبو بكر لا يكف عن الالتفات والدوران حول النبي ﷺ خوفًا عليه ، ورسول الله ﷺ يقرأ القرآن، ولا يلتفت حوله فهو واثق من نصر الله تعالى له ، ولا يخشى أحدًا ، وبينما أبوبكر يلتفت خلفه إذا بفارس يقبل نحوهما من بعيد ، كان الفارس هو سراقة بن مالك وقد دفعه إلى ذلك أن قريشًا لما يئست من العثور على الرسول ﷺ وصاحبه ، جعلوا مائة ناقة جائزة لمن يرده إليهم حيًا أو ميتاً ، فانطلق سراقة بن مالك بفرسه وسلاحه في الصحراء طمعًا في الجائزة ، فغاصت أقدام فرسه في الرمال مرتين حين رأى رسول الله ﷺ ، فنزل سراقة مسرعًا عن الفرس ، حتى نزعت أقدامها من الرمال، فأيقن سراقة أن الله تعالى يحرس رسوله ﷺ ولن يستطيع إنسان مهما فعل أن ينال منه ، فطلب من رسول الله أن يعفو عنه ، وعرض عليه الزاد فقال له النبي ﷺ « لا حاجة لنا، ولكن عَمِّ عنا الخبر » فوعده سراقة ألا يخبر أحداً وعاد إلى مكةوهكذا خرج سراقة يريد قتلهما وعاد وهو يحرسهما ويبعد الناس عنهما ، فسار النبيﷺ وصاحبه إلى المدينة تحرسهما عناية الله .

وأثناء رحلة رسول الله ﷺ وأبي بكر إلى المدينة مرًا بمنازل خزاعة ودخلا خيمة أم معبد الخزاعية ، وكانت سيدة كريمة ، تطعم وتسقي من مرَّ بها ، فسألاها : عما إذا كان عندها شيء من طعام؟ فأخبرتهما أنها لا تملك شيئًا في ذلك الوقت ، فقد كانت السنة شديدة القحط ، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في جانب الخيمة فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد؟ فأخبرته أنها شاة منعها المرض عن الخروج إلى المراعي مع بقية الغنم ، فقال : هل بها من لبن؟ قالت : هي أجهد من ذلك ، فقال : أتأذنين لي أن أحلبها؟قالت : نعم إن رأيت بها حلباً فاحلبها ، فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها ، وسمى الله ودعا ، وطلب إناء فحلب فيه حتى علته الرغوة ، فسقاها فشربت حتى شبعت ، وسقى رفيقيه أبا بكر وعبد الله بن أريقط حتى شبعا ، ثم شرب ، وحلب فيه ثانية حتى ملأ الإناء ، ثم تركه ﷺ وانصرف.

الرسول ﷺ في قباء :

علم أهل المدينة بهجرة الرسول ﷺ إليهم ، فكانوا يخرجون كل يوم بعد صلاة الصبح إلى مشارف المدينة ، وعيونهم تتطلع إلى الطريق ، وتشتاق لمقدم الرسول ﷺ إليهم ، ولا يعودون إلى بيوتهم إلا إذا اشتد حر الظهيرة ، ولم يجدوا ظلاً يقفون فيه.

وفي يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول انتظر أهل يثرب رسول الله ﷺ كعادتهم ، حتى اشتد الحر عليهم ، فانصرفوا لبيوتهم ، وبعد قليل أقبل رسول الله ﷺ وصاحبه، فأبصرهما رجل يهودي كان يقف على نخلة ، فصاح بأعلى صوته : يا بني قيلة ، هذا صاحبكم قد جاء ، فأسرع المسلمون لاستقبال نبيهم وصاحبه أبي بكر الذي كان يُظل رسول الله ﷺ بردائه من حر الشمس ، وبينما الرسول ﷺ في قُباء ، في بيت سعد بن خيثمة يستقبل الوافدين عليه ، أقبل عليُّ بن أبي طالب من مكة بعد أن ظل فيها ثلاثة أيام بعد خروج الرسول ﷺ ؛ ليرد الأمانات إلى أهلها ، وقد ظل الرسول ﷺ في قباء أربعة أيام يستقبل أهل المدينة ، وعندما أقبل يوم الجمعة ترك رسول الله ﷺ قباء متوجهًا للمدينة بعد أن أسس مسجد قباء ، وهو أول مسجد بُني في الإسلام ، وقال الله عز وجل عنه : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة ١٠٨] لقد كانت الهجرة حدثًا فاصلاً بين عهدين ، فقد أعز الله المسلمين بعد أن كانوا مضطهدين ، وصارت لهم دار أمن يقيمون فيها ، ومسجد يصلون فيه ، ويؤدون فيه شعائرهم ، ويتشاورون في أمورهم ، لهذا كله اتفق الصحابة على جعل الهجرة بداية للتاريخ الإسلامي ، فقد تحول المسلمون من الضعف والحصار والاضطهاد إلى القوة والانتشار ورد العدوان.

والآن نستعرض تلك الرسالة الخالدة التي من أجلها تحملوا وصبروا وضحوا وهاجروا وآسوا وأنفقوا كل ذلك من أجل الإسلام ، فما هو الإسلام الذي من أجله فعلوا ذلك كله؟